

أضواء البيان

@ 43 لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل مفكوكين ، بل قال :
منفكين ، وهذا أحسن ، إلى أن قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون
ولا ترسل إليهم رسل . . .
والمعنى : أن لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولا ، وهذا كقوله
: { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } ، لا يؤمر ، ولا ينهى ، أي : أیظن أن هذا
يكون ؟ هذا ما لا يكون ألبتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى . . .
وقريب من ذلك قوله تعالى : { إِنْ زَلَّ جَعَلْنَا هُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ } * وَإِنْ زَلَّ هُ فِي أُمَّةٍ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّيْ * حَكِيمٌ *
أَفَنْذَرْتُ رَبُّ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ } . وهذا
استفهام إنكار أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل . . .
تبين من ذلك كله أن الأصح في (منفكين) معنى (متروكين) وبه يزول الإشكال الذي أورده
الفخر الرازي ، ويستقيم السياق ، ويتضح المعنى ، وباللَّه تعالى التوفيق { حَتَّى
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّكَ فَتَعْلَمُونَ } .
أجمل البيئته ثم فصلها فيما بعدها { رَسُولٌ مِّنَ اللَّاهِ يَتْلُو صُحُفًا مَّطْهُرَةً } .
وفي هذا قيل : إن البيئته هي نفس الرسول في شخصه ، لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه ، كما
في قوله : { وَمُؤَيَّدٌ بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَذْهَبُ } ، وقوله :
{ يَعْرِفُونَ نَبَاهَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ } . . .
فكان وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بيئته لهم . . .
ولذا جاء في الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبي الختان إلى آخر أخباره
صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا
يعرفونه عن طريق أهل الكتاب ، وبما كان متصفًا به صلى الله عليه وسلم ، ومن جميل الصفات
كما قالت له خديجة عند بدء الوحي له وفرعه منه : (كلا واللَّه لن يخزيك اللَّه ،
واللَّه إنك لتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر) إلى آخره . . .
وقول عمه أبي طالب : (واللَّه ما رأيتك لعب مع الصبيان ولا علمت عليه كذبة) إلخ .
وقد لقبوه بالأمين .